قوافل حجيج إفريقيا الغربية
ودورها في العلاقات والتواصل عبر شمال القارّة

أ.د. منذر محمد الحايك

مقدمة:

لم تكن تسمية إفريقيا الغربية، أو حتى السودان الغربي معروفة لدى الجغرافيين والرحّالة المسلمين، عند حديثهم عن هذه المنطقة، فهي لم تظهر إلا عندما تم اكتشاف منابع نهرَي النيل والنيجر، في القرن التاسع عشر، وعُرف أنهما نهران منفصلان، وليسا نهراً واحداً، كما كان يُعتقد. وقد أُطلق- حينها- اسم السودان الغربي على منطقة مجرى نهرَي السنغال والنيجر[١]. بينما كانت تسمية السودان تعني منطقة أوسع بكثير من هذه المنطقة لدى المؤرّخين والرحّالة المسلمين، مثل: ابن خلدون، وابن بطوطة[٢]، فقد كانوا يَعدّون أن بلاد السودان هي كل المناطق المترامية جنوب الصحراء الإفريقية، من المحيط الأطلسي غرباً حتّى نهر النيل شرقاً، وقد أضاف ابن خلدون[٣] "جزر الخالِدات" إلى منطقة السودان[٤].

إن مصطلح إفريقيا الغربية أو السودان الغربي المتداول اليوم هو- في الواقع- إقليم جغرافي كبير، يَضم مساحة واسعة من الأرض، تمتد من نهر النيجر شرقاً، وحتّى ساحل المحيط الأطلسي غرباً، ويحدّه من الشمال الصحراء الكبرى، ومن الجنوب الغابات الاستوائية[٥].

يزيد عدد سكان هذا الإقليم- حالياً- على مائتي مليون نسمة، ويتبع أكثر من نصفهم الدين الإسلامي وفق المذهب المالكي، ولا يتعارض ذلك مع انتماء قسم كبير منهم للطرق الصوفية المختلفة[٦]. أما لغة الأغلبية من السكان في السودان الغربي؛ فهي "الهوسا"، وتليها "الفولاني"[٧]، والعربية- غالباً- مفهومة للجميع.

كان سكان غرب إفريقيا قديماً، يعيشون على شكل تجمعات قبلية، حتّى استطاعت واحدة من تلك التجمعات "الماندي" أن تؤسس عام ٣٠٠ م دولة كبيرة، هي "نمانة"، وجعلت مدينة "أوكار" قرب تمبكتو

١- سيتم استخدام مصطلح غرب إفريقيا؛ لأنه يعبِّر- بدقة- عن المنطقة المقصودة بهذا البحث.

٢- بناني: عثمان، السودان الغربي عند ابن بطوطة، وابن خلدون، ص ٨٤، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف، المملكة المغربية، العدد ٢٦٩ أبريل ١٩٨٨.

٣ - ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، ٩٧، دار الكتب العلمية، بيروت/ ١٩٩٢.

٤ - جزر الخالدات: هي جزر الكناريا الواقعة في المحيط الأطلسي غرب الساحل الإفريقي، وكانت تسمّى- أيضاً- جزر السعادة.

٥ - يضم- حالياً- إقليم غرب إفريقيا خمسَ عشرةَ دولة: السنغال، جامبيا، الجابون، غينيا بيساو، غينيا "كوناكري"، سيراليون، ليبيريا، ساحل العاج "كوت ديفوار"، غانا، توجو، بنين، نيجيريا، بوركينا فاسو، مالي، موريتانيا. ويحدّه من الشرق: دولتا تشاد والكاميرون، بينما يطل على المحيط الأطلسي من الغرب والجنوب، أما من الشمال؛ فالدولتان العربيتان: الجزائر والمغرب.

٦ - عباس: محمد جلال، المد الإسلامي في إفريقيا، ص ٧٥، المختار الإسلامي، القاهرة/ ١٩٧٨.

٧ - عبد الحليم: د. رجب محمد، المسلمون في إفريقيا جنوبي الصحراء، ص ٨/ ٧٥، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي ١-١٦، دار الرسالة/ بيروت ٢٠٠٤.

عاصمة لها[٨]. وفي عام ٨٠٠ م، قام فرع آخر من شعوب الماندي بالقضاء عليها، وأسس إمبراطورية، غلب عليها اسم "غانا" نسبة لحكامها[٩]، الذين كان كل منهم يحمل لقب "غانا" إضافة لاسمه. أما الأقاليم الشرقية، مالي الحالية، وما حولها؛ فقد كانت– في تلك العصور– تشتهر باسم "بلاد التكرور"، وخاصة لدى المشارقة من المسلمين[١٠]. ويعدّد اليعقوبي ممالك السودان الغربي في زمنه، فيقول إنها: "مملكة الزغاوة، وملل، والمرو، والكوكو، والهربر، وصنهاجة، ثم مملكة غانة"[١١].

العلاقة بين رحلة الحج وانتشار الإسلام في إفريقيا الغربية:

كان لرحلة الحج دور كبير في تمكين الإسلام من الانتشار في إفريقيا الغربية، وفي ظل الإسلام، قامت أقوى الممالك هناك، وأكثرها تحضراً في العصر الوسيط. وسيكون للإسلام دور كبير في الحفاظ على بنية هذه المجتمعات وثقافاتها، في وجه المد الاستعماري الغربي، الذي سيطر عليها في العصر الحديث، ودعم التبشير المسيحي، الهادف لقلب المفاهيم الدينية والثقافية والاجتماعية. "فكانت الجماعات المسلمة هي الخمائر التي خرجت منها صيحات التحرر؛ حيث لعبت الجمعيات الإسلامية دوراً مهماً في قيادة الحركة الاستقلالية في غرب إفريقيا وشرقها، وأسهم الزعماء المسلمون بدورٍ فعّالٍ في تقدم الحركة الاستقلالية"[١٢].

مع أن دول المغرب الإسلامية المتتالية دعمت– بقوة– نشر الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا، لكنْ؛ في الحقيقة، وُجدت عدة عوامل قوية كانت وراء انتشار الإسلام هناك، وزحفه نحو الجنوب، باتجاه خليج غانا، وكان منها: حركة القبائل المسلمة تجاه الجنوب، والتي غالباً ما كان الدعاة والأئمة يرافقونها. ولا يخفى ما كان للطرق الصوفية، التي أولع بها المسلمون الأفارقة، من دور، في نشر الإسلام، عن طريق المدارس والزوايا. كذلك كان للتجّار المتجولين مساهماتهم في نشر الإسلام، من خلال الأسواق والتعامل مع الناس[١٣]. لكن أهم الأدوار في نشر الإسلام في تلك المنطقة، لعبها الحجّاج من أهل البلاد، وخاصة ملوكهم، فالحجّاج الذين تأثروا بروح الأخوة الإسلامية، في طريق الحج، وفي أثناء الموسم، عادوا من حجهم، ممتلئين بنشوة دينية عميقة، فكانوا أهم مؤثر في أهلهم وأصدقائهم وجيرانهم، الذين لم يُسلموا بعد. كذلك الأشخاص الذين رافقوا قوافل الحجيج، وصحبوهم إلى بلادهم مهاجرين، ومعظمهم من العرب والبربر الذين مضى على إسلامهم زمن طويل، وحملوا معهم العقيدة والثقافة الإسلامية[١٤]. ذلك كله كان

---

[٨] – زيربو: ج. ك، تاريخ إفريقيا السوداء من أمس إلى غد، ترجمة: يوسف شلب الشام، وزارة الثقافة، دمشق/ ١٩٩٤.

[٩]– غانا: تعني الرئيس المحارب.

١٠ – قاسم: د. قاسم عبده، مسلمو غرب إفريقيا، ص ١١٥، دار عين للدراسات، القاهرة / ٢٠١٥.

١١ – اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، ٢٣٩/١، دار صادر، بيروت/ ١٩٩١.

[١٢] – بلولة: د. إبراهيم محمد أحمد، الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، ص٨٣، دراسات دعوية، العدد ٩، فبراير/ ٢٠٠٥ – جامعة إفريقيا العالمية.

[١٣] – أحمد: محمد عبد القادر، المسلمون في غينيا، ص٢٦، دار الفكر العربي، القاهرة/ ١٩٩٦.

[١٤] – عبد الحليم: د. رجب محمد، المسلمون في إفريقيا جنوبي الصحراء، ص ٨/ ٧٣، مرجع سابق.

له أكبر الأثر على انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية، وانعكس- أيضاً- على الحجيج، بتشجيعهم على تحمّل المشاق والصعاب لأداء فريضة الحج[١٥].

لقد كان من نتائج انطلاق رحلات الحج من بلاد إفريقيا الغربية، توفير فرصة للحجّاج لتعلم أمور دينهم، من خلال الاحتكاك بإخوانهم المسلمين، في أثناء أداء شعائر الحج، وفي أثناء مرور الحجّاج بالمراكز العلمية المشهورة في ذلك الوقت، مثل: جامع القرويين، وجامع الزيتونة، والجامع الأزهر؛ حيث يتمكن الحجّاج من أن يلتقوا العلماء والفقهاء، ويطلعوا على مؤلفاتهم، ويعود الحجّاج- بعد ذلك- بحماسة عالية، وهمة كبيرة لتعليم الناس أمور دينهم بعد عودتهم من الحج، والاندفاع لنشر الاسلام[١٦]. وكانت أهم قاعدة وملتقى لقسم كبير من من حجيج إفريقيا الغربية هي مدينة "تمبكتو"[١٧]، التي حولها الحجّاج لمنارة تنشر الإسلام، فمنها انطلقت جموع الدعاة والعلماء، تبشّر بالإسلام بين القبائل الإفريقية الوثنية.

حج الملوك وانتشار الإسلام:

وممّا أعطى رحلات الحج لسكان إفريقيا الغربية أهمية كبيرة، وزاد في تأثيرها على انتشار الإسلام، هو قيام عدد من ملوك الممالك، التي قامت هناك بالتوجه إلى مكة، لأداء فريضة الحج. ويذكر "البكري" بأن الملك "سرمندانه" كان أول مَن اعتنق الإسلام في السودان الغربي[١٨]، وقال المقريزي بأن واحداً من خلفائه، هو "موسى الأكوبي"، قام بأداء فريضة الحج في عهد السلطان الظاهر بيبرس. وقد حرص معظم الحكام الأوائل لتلك الممالك، على أداء فريضة الحج، عبر الطريق البري، المار بمصر التي كانت تحت حكم المماليك[١٩]. أما أشهر هؤلاء الملوك، والذي كانت له أشهر حجة على الإطلاق؛ فهو الملك منسى موسى[٢٠]. ومن ملوك سنغاي[٢١]،الذين قاموا بأداء فريضة الحج، كان الملك أسكيا

---

١٥ – الشمراني: أمل بنت صالح، رحلات الحج وآثارها على بلاد السودان الغربي في عصر دولتي مالي وسنغاي (٦٣٣- ٩٩٩هـ/ ١٢٣٥- ١٥٩٨م)، ص ٨٤، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض/ ١٤٣٢هـ.

١٦ – قداح: نعيم، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، ص ٨٥، الشركة الوطنية، الجزائر/ بلا.

١٧ – تمبكتو: تم تأسيسها في القرن ٥هـ ١١م قرب نهر جوهيبا "النيجر"، بواسطة مجموعة من الطوارق كانت تعيش في المنطقة، وهيأ لها موقعها عند بوابة الصحراء الكبرى، وعلى حدود الأراضي الخصبة أن تكون ملتقى للطرق، ومحطةً لعابري الصحراء. بدأت تمبكتو بلفت الأنظار إليها كمركز إشعاع علمي بعد رجوع ملك المندينغ "منسى موسى" من رحلة الحج الشهيرة.

١٨ – البكري: أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب – وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، ٨٧، دار صادر، بيروت/ ١٩٨٧.

١٩ – المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، ص ١٤٨، تحقيق: جمال الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة/ ٢٠٠٠.

٢٠ – منسَى موسى: أشهر ملوك مالي (٧١٢-٧٣٧هـ ١٣١٢-١٣٣٧م)، يذكره ابن خلدون باسم "ماري جاطة"؛ أي الأمير الأسد. وهو حسب ما قال القلقشندي: كان من أعظم ملوك مالي. (القلقشندي: محمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٥/ ٢١٠). وتحدث المقريزي عن رحلة أسطورية لملك التكرور منسَى موسى بن أبى بكر، (المقريزي، الذهب المسبوك، ص ١٥٢). وهو غير منسَى موسى المؤسس الذى زار مصر أيام السلطان الظاهر

محمد[٢٢]،الذي زار مصر في طريق عودته. وحتى ندرك أهمية رحلات حج الملوك في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، نشير إلى أن الملك منسى موسى عاد إلى بلاده من الحج، وبصحبته الفقيه المالكي عبد الرحمن التميمي، الذي ولاه القضاء، وكان له دور كبير في زيادة وتيرة نشر الإسلام في مالي[٢٣]. كذلك استقدم موسى الفقيه أبا عبد الله محمد بن واسول من مدينة سجلماسة؛ ليوليه القضاء، وهناك قابله المؤرخ ابن خلدون[٢٤].

إن ذلك كله يؤكد سمة الطابع السلمي لانتشار الإسلام في القارة الإفريقية عامة، وفي إفريقيا الغربية، بشكل خاص، "ومما يؤكد ذلك– أيضاً– أن أهل القارة أنفسهم سواء أكانوا من البربر أم من الزنج والسودان، هم الذين قاموا بنشر الإسلام، بعد أن وصلت الدعوة إلى بلدانهم، وإلى ما وراءها من بلدان"[٢٥]. فالإسلام لم ينتشر في إفريقيا الغربية عن طريق القوة أو الفتوحات، بل وصلها بأكثر الطرق سلمية، ألا وهي طرق قوافل الحجيج التي سلكها الحجّاج، ومن ثم تبعهم الدعاة والتجّار.

أهمية طريق شمال إفريقيا لرحلة الحج:

عبر أزمان طويلة، كانت القوافل تنساب من غرب إفريقيا نحو البيت العتيق، في رحلات قد تستغرق سنوات، وربما تأخذ من بعضهم العمر كله، هذه الرحلة، وطريقها الطويل أحدثت– ولقرون طويلة– آثاراً، لن تُمحى على المجتمعات التي تنطلق منها، وكذلك على المجتمعات التي في طريقها عبر الشمال الإفريقي إلى أرض الحجاز. هذا الطريق الحيوي كان أشبه بنهر، يتدفق بالحياة حاملاً معه العادات والمعارف، وفوق ذلك كله شريعة الإسلام.

بيبرس. وللاستزادة حول رحلة منسى موسى، راجع: (زهرة عبد الغني عبد الفتاح، تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية وأحوال المسلمين بها، ص ١٩٣، مكتبة الرشيد، الرياض/ ١٤٢٨هـ/ م ٢٠٠٧).

[٢١] – مملكة سنغاي: أو صنغي، كانت عاصمتها "كوكيا"، ثم أصبحت "كاغ"، أسستها في القرن ٧م– قبائل سنغاي على وادي النيجر. دخلها الإسلام في القرن ١١م، وعرفت هذه المملكة ذروة مجدها وتوسعها في عهد أسرة الأسكيا.

[٢٢] – أسكيا محمد: (٨٩٣–٩٢١هـ ١٤٩٣–١٥٢١م) أول ملوك آل أسكيا في سنغاي، تولى الحكم عام ٨٩٨هـ ١٤٩٣م بعد الإطاحة بالملك "سني بارو" آخر ملوك أسرة سني. كان محمد جليل القدر، له كثير من المناقب وحسن السياسة، حج في عام (٤٩٥هـ ١١٠١م) حجته المشهورة. جدد في إدارة الدولة وطورها، وعندما عمي، عزله ابنه أسكيا موسى، فدخلت مملكة سنغاي في صراع حول الحُكم حتّى انهارت الدولة. للاستزادة حول هذا السلطان، راجع: محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، ص ١٥٩، ميزونوف، باريس/ ١٩٨١

– د. فادي منصور، أسكيا الحاج محمد وإحياء الدولة الإسلامية للسنغاي، رسالة دكتوراة من قسم التاريخ والحضارة في كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر/ ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

– د. عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، مرجع سابق.

[٢٣] – محمود: حسن أحمد، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ص ١٦١، دار الفكر العربي، القاهرة/ ٢٠٠٦م.

[٢٤] – ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧/ ٤١٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت/ بلا.

[٢٥] – عبد الحليم: د. رجب محمد، المسلمون في إفريقيا جنوبي الصحراء، ص ٨/ ٧٧، مرجع سابق.

ومع وجود طريق محتمل آخر يعبر وسط القارة نحو مدينة بربر[٢٦]، ومنها إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر[٢٧]، وقد نشط عندما انعدم الأمن في صحراء الجزائر، لكن الطريق الفعال والمفضَّل لأكثر حجّاج إفريقيا الغربية في الأحوال العادية، كان طريق: شنقيط، ومن ثم؛ عبور شمال إفريقيا إلى مصر[٢٨]؛ حيث كانوا يتجمعون عند مدينة ولاته[٢٩] في شنقيط التي كانت تُعدّ من أقاليم إفريقيا الغربية[٣٠]؛ حيث يتشكّل هناك رَكْبُ الحاجِّ الوَلاتِي، وهو أقدم ركب حج في البلاد، قبل أن يعقبه ركب الحج الشنقيطي في القرن ١٩ م[٣١]. ثم يقصدون المغرب، وهناك ينضمون إلى قوافل مراكش، أو فاس، أو سلا، التي كانت تنطلق من المغرب– عادة– أواخر شهر جمادى الآخرة، من كل عام. وغالباً ما كانت هذه القوافل تتبع الطريق البري الذي يعبر الشمال الإفريقي، بمحاذاة البحر المتوسط، وأحياناً بحال وجود موانع، تتبع الطريق البحري الذي كان يرغب به سكان مدن سواحل المغرب، فيمتطون المراكب، ويتجهون– مباشرة– إلى الإسكندرية، ومن هناك، يلتقون مع قافلتي الحج المصري والمغربي. وعادة ما كانت القوافل المنطلقة من المغرب تضبط توقيتها؛ ليتطابق مع موعد انطلاق قوافل الحج الجزائرية، ثم التونسية، وبعدها الليبية، ثم

---

[٢٦] – بربر: مدينة تقع شمال جمهورية السودان، ازدهرت في العصور الوسطى، ولعبت دوراً حيوياً كمحطة على طريق قوافل الحج القادمة من قلب إفريقيا.

[٢٧] – هذه الطريق– على مخاطرها– كانت تُستخدم– غالباً– من قبل حجّاج وسط إفريقيا،والغرب الإفريقي، الأوسط ومنطقة خليج غانا؛ حيث يتجمعون في عاصمة النيجر نيامي، ومنها إلى أنجامينا في تشاد فدارفور، ثم نحو سواكن على البحر الأحمر. وفي كثير من الأحيان، كانت قوافل حجّاج وسط إفريقيا تسلك الطرق البرية العابرة للصحراء شمالاً صوب طرابلس.

[٢٨] – توجد عدة طرق كانت تربط– بشكل مباشر– بين بلاد غرب إفريقيا ووسطها وشمالي القارة، منها: الطريق جنوبي تونس المتجه إلى بلاد الكانم والبرنو في حوض بحيرة تشاد، وطريق جنوبي الجزائر المتجه إلى بلاد الهوسا في شمال نيجيريا، والطريق من جنوبي مراكش إلى مصب نهر السنغال ومنحنى نهر النيجر ونيجيريا وتشاد. (د. رجب محمد عبد الحليم، المسلمون في إفريقيا جنوبي الصحراء، ص ٨/ ٧٧، مرجع سابق).

٢٩ – ولاته: أو "ولاتا"، تقع على حافة الهضبة الكبرى في أقصى شرق موريتانيا، وهي أقدم مدنها، كانت أكثر حاضرة علمية ازدهاراً في غرب الصحراء، ومحطة تجارية نشطة.

٣٠– شاكر: محمود، موريتانيا بلاد شنقيط، ص ٦، مكتبة دار الفتح، دمشق/ بلا. وشنقيط تعني بلغة الأمازيغ "عيون الخيل"، وتسمّى– الآن– "موريتانيا"، وهي تسمية رومانية، كانت تضم كل ما هو غرب تونس. وكان المسلمون يشملونها ضمن تسمية "بلاد التكرور". (الشيخ الطيب بن عمر بن حسين، السلفية وأعلامها في موريتانيا، ص ٢٢٧، دار ابن حزم، بيروت/ ١٤١٦)، ويبدو أن أهالي شنقيط كانوا يقولون بأن بلادهم جزء من المغرب، ولكن كثيراً من أهل الجزائر والمغرب رفضوا نسبتها للمغرب، فاحتج أهلها للسلطان الذي صدّق دعواهم بأنهم من بلاد المغرب. (أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص ٢١٦، مكتبة الخانجي القاهرة/ ١٩٨٩). ولكنْ؛ في العصر الحديث، انتهت المشكلة بالقول: "إن كانت بلاد شنقيط من المغرب، أو السودان، فلا يختلف الأمر". (د. محمد بن رزق بن ظرهوئي، التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، ص ٤٦، دار ابن الجوزي، الرياض/ ٢٠٠٥).

٣١ – ولد السالم: د. حماه الله، رحلات الحج من موريتانيا "بلاد شنقيط"، ص ٢٨، المؤتمر الدولي الأول: "الرحّالة العرب والمسلمين"، الدوحة/ ٢٠١٠.

تعبر هذه القوافل مجتمعة الأراضي المصرية، بمحاذاة الساحل؛ لتلتقي قافلة الحج المصري، في شمال القاهرة، فترافقها، في الذهاب، وفي الإياب[٣٢].

كانت قافلة الحجّاج الأفارقة والمغاربة، التي تعبر شمال إفريقيا، تشكّل مجتمعاً صغيراً متنقّلاً، يتكون من الحجّاج وعائلاتهم، والفقهاء، ومعلمي القرآن الكريم، والتجّار، وعدد من الحراس. ولكن عددهم ليس بالكبير، وذلك لطول زمن الرحلة، وبُعد المسافة[٣٣]، وارتفاع التكاليف، وخطورة الطريق، علماً بأن أعدادهم كانت تتفاوت بين عام وآخر. وكان من الطبيعي أن يتخلّف بعض الحجّاج، للإقامة في واحدة من محطات الطريق، أو مدنه، لأكثر من سبب.

يرأس القافلة "أمير الركب" الذي يكون– عادة– من الشيوخ الأجلاء، وإلى جانبه "قاضي الشرع". وكان للقافلة نظام سير وترتيب محددين: فالدواب المحملة بالسلع تسير في المقدمة، وحولها الحراس. يليهم الحجّاج المشاة، إما بسبب فقرهم، أو لرغبتهم في نيل ثواب الحج مشياً على الأقدام. ثم تأتي دواب حمل متاع الحجّاج، وفي المؤخرة الحجّاج الراكبون. وكانت القافلة تواصل سيرها كل يوم بعد صلاة الصبح، وحتّى وقت العصر؛ حيث تتوقف للمبيت. لكنْ؛ حين يشتد الحر– وخصوصاً إن كان الموسم صيفاً– فالقافلة تسير ليلاً. ورغم أن القافلة تحتمي بقداسة وجهتها نحو الديار المقدسة، إلا إن ما تحمله من بضائع كان – أحياناً – يجعلها هدفاً لقطّاع الطرق، أو للقبائل البدوية[٣٤]. وربما كان أفضل مَن يعطينا فكرة عن طريق شمال إفريقيا للحج عبر مصر، هو ما دوّنه ابن بطوطة في رحلته المشهورة[٣٥].

الرحلة عبر مصر:

عادة كانت قوافل شمال وغرب إفريقيا تصل إلى مصر حوالي شهر رمضان، فيتوقّفون فيها الشهر كاملاً، قبل أن يستأنفوا طريقهم نحو الحجاز. فتتابع قوافلهم من الإسكندرية إلى رشيد؛ حيث يأخذ الحجّاج المراكب النيلية؛ لتلتقي قافلة الحج المصري شمالي القاهرة عند بركة الحاج[٣٦]، ومن هناك تواصل بعض القوافل مسيرها برّاً حتّى ميناء القلزم "السويس"، ومنها ما يواصل الطريق البري عبر سيناء، بمحاذاة البحر الأحمر إلى مدينة جدة، ومنهم– أيضاً– مَن يُبحر في السفن إليها[٣٧].

---

٣٢ – واعراب: مصطفى، الحج قديماً، ص١٤٨، مجلة المساء، المملكة المغربية، العدد ٢٨١٠ تاريخ/ ٢٠ أوكتوبر ٢٠١٥.

٣٣ – يُروى عن الإمام النسفي: أن رجلاً كان يطوف بالبيت، فسأله أحد الطائفين: من أي بلد؟ فذكر له بلداً بعيداً، قال: متى خرجت من بلدك؟ قال: أترى رأسي هذا؟ أترى فيه شعرة سوداء؟ قال: لا، قال: خرجت من بلدي، وما في رأسي شعرة بيضاء.

٣٤ – واعراب: مصطفى، الحج قديماً، ص ١٥٠، مرجع سابق.

٣٥ – بناني: عثمان، السودان الغربي عند ابن بطوطة وابن خلدون، ص ٨٨، مرجع سابق.

٣٦ – بركة الحاج: قامت مكانها– الآن– القرية المعروفة باسم "البُرْكة"، وهي إحدى قُرى مركز شبين القناطر محافظة القليوبية.

٣٧ – توجد مدوّنة لرحلة الركب المغربي الذي يرافقه– عادة– حجيج إفريقيا الغربية، ومع أنها حديثة نسبياً، لكنها تعطينا فكرة؛ حيث لم يتبدل حالها، ولا طريقها كثيراً، وهي رحلة ابن طوير الجنة: "رحلة المنى والمِنّة" التي قام بها من

ولكن هذا الطريق توقّف معظم زمن الحروب الصليبية؛ حيث لجأ الحجّاج إلى طريق آخر، فكانوا يقلعون في نهر النيل صعوداً إلى "قوص"، ومنها يتابعون نحو "عيذاب" على ظهور الإبل عبر صحراء مقفرة[٣٨]. وكان أصحاب الجاه والثراء يركبون"الشقاديف"[٣٩] المثبتة على ظهور الإبل، أما أغلب المسافرين؛ فكانوا يركبون فوق الأحمال، ويقاسون من حر الشمس، ومن ميناء عيذاب، يركبون "الجلاب"[٤٠] إلى جدة[٤١].

دور طرق الحج في التواصل بين إفريقيا الغربية والعالم الإسلامي:

التواصل عبر تناقل الأخبار:

كان حجّاج إفريقيا الغربية والمرافقون لقوافلهم من تجّار وحراس يُعدّون من أهم المصادر الشفوية، لنقل أخبار ما خلف الصحراء الإفريقية الكبرى، لبقية أنحاء العالم الإسلامي، عبر نشرها في طريق حجهم[٤٢]. ومن طرف آخر، كان رواد قافلة الحج هم المصدر الوحيد، لما ينقل لأهل بلادهم عن أخبار البلاد الإسلامية التي جابوا فيها، في طريق حجهم، وما سمعوه من الحجّاج الذين التقوهم في الطريق، أو في موسم الحج بأرض الحجاز. وكان من المعتاد أن يروي الحاج لأهله وأصحابه حول مشاهداته، وما حدث معه في أثناء الطريق، وفي مناسك الحج. وصحيح أن قلّة من الحجّاج دوّنوا مشاهداتهم، لكنهم جميعاً كانوا رواة أخبار في مجتمعاتهم بعد العودة، وحتّى لو لم يفكر الحاج بالرواية، أو لم يكن مستعداً لها، فإن الإلحاح بالأسئلة كفيل بأن يجعله يروي أدق التفاصيل المملّة لرحلته، التي يُفترض أنها كانت عجائبية، في ذلك الوقت. ولذلك ظلت قوافل الحجيج بالغة الأهمية في التواصل عبر نقل الأخبار الصحيح منها والملفق، لا سيما إلى الأقطار المنعزلة التي لا يصلها بالعالم الإسلامي، إلا رحلات الحج[٤٣].

شنقيط إلى الحجاز عام ١٢٤٥هـ. (د. حماه الله ولد السالم، رحلات الحج من موريتانيا "بلاد شنقيط"، ص ٣٤، مرجع سابق).

[٣٨] – وصف ابن جبير تفاصيل هذا الطريق في رحلته المشهورة، (ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني، الرحلة، ص ٨٩، دار صادر، بيروت/ ١٩٨٩). ويقول المقريزي: "إن حجّاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب". (المقريزي: أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص ٢/ ١١٦ دار التحرير، القاهرة/ ١٩٤٣).

[٣٩] – الشقاديف: مقاعد خشبية، يوضع كل اثنين منها على راحلة، ويكون عليها مظلّة، فيكون الراكب مع عديله في وقاية من الشمس خصوصاً في أيام الصيف.

[٤٠] – الجلاب: جمع "جلبة"، وهو نوع من المراكب المصنوعة من ألواح خشبية مشدودة إلى بعضها بحبال من ألياف جوز الهند "النارجيل"، وكانت تُستعمل في مصر والحجاز واليمن.

[٤١] – ذكر المقريزي: أن هذا الطريق ظلّ مسلكاً لحجّاج مصر والمغرب حتّى انتهاء الوجود الصليبي (المقريزي: الخطط، ص ٢/ ١١٧، مرجع سابق).

[٤٢] – بناني: عثمان، السودان الغربي عند ابن بطوطة وابن خلدون، ص ٧٩، مرجع سابق.

[٤٣] – ولد السالم: د. حماه الله، رحلات الحج من موريتانيا "بلاد شنقيط"، ص ٢٩، مرجع سابق.

كما كانت رحلة الحج فرصة كبيرة؛ ليتعرف الحجّاج على إخوة لهم من المسلمين، على تباعد بلادهم. وكذلك التعرف على ديار الإسلام، واكتشاف ميزات وفضائل المدن الإسلامية. فالحج وطريقه الطويل، أتاحا حيزاً كبيراً لنقل الأخبار، وللتعرف على ديار الإسلام الواسعة، وشعوبها المختلفة[٤٤].

تأثير طريق الحج على الفكر الإسلامي في إفريقيا الغربية:

كان لرحلة الحج أهم الأدوار في استمرار التنوير الإسلامي لمجتمعات غرب إفريقيا، فقد كانت الرحلة صلة وصل تثقيفية إسلامية، بينها وبين مركز العالم الإسلامي، في بلاد الحرمين والمراكز الإسلامية الكبرى في شمال إفريقيا، وقد ساعد ذلك في تصحيح عقائد القبائل الإفريقية حديثة الإسلام؛ حيث كان الحجّاج يعودون– بعد أداء الفريضة– وهم أكثر وعياً وتفهّماً لدينهم، بسبب ما كانوا يتلقّونه في مجالس العلماء والوعَّاظ. فساهموا في التصدي للكثير من المفاهيم الخاطئة، والبدع، والعادات التي كانت منتشرة. كما أسهمت رحلات الحج في تطور العلوم الإسلامية، بواسطة انتقال مصنّفاتها، وفتاويها، واطّلاع طلاب العلم عليها[٤٥]، فقد كان قسم كبير من حجّاج غرب إفريقيا مهتمّين بتحصيل العلم عن طريق الالتقاء بعلماء البلدان التي يمرون بها في أثناء رحلة حجهم، خاصة أن هؤلاء الحجّاج كانوا يعودون، محمّلين بالكُتُب الدينية، التي تزيد من علم الأفارقة، وثقافتهم الدينية والدنيوية. ولا يخفى الأثر البالغ الذي حقّقته رحلات الحج على تمسّك مملكة مالي الإسلامية بأحكام الشريعة الإسلامية الصحيحة. "وبفضل تلك الرحلات، صارت دول غرب إفريقيا مسلمة في بنيتها؛ حيث تبنّت ما تم نقله من الشرق العربي المسلم، من عقائد، وممارسات، ومظاهر مادية، ولامادية"[٤٦].

كما كان للمساجد الشهيرة الواقعة في مسار قافلة حج إفريقيا الغربية عبر شمال القارة: القرويين، والزيتونة، والأزهر، وبعض المساجد الأخرى، والمزارات، والتكايا، والزوايا، التي يعج بها الطريق– دور كبير في نشر وعي إسلامي مشترك، من خلال الحلقات التي يحضرها الحجّاج، والتي كانت ركناً أساسياً من أركان طريقهم في هذه الرحلة الدينية، فتفقّهوا، أو ازدادوا فقهاً حتّى غدا طريق الحج هذا، وكأنه شريان حيوي للقارة، نتج عنه تشكيل وجدان إسلامي مشترك.

وقد تجلّى أثر رحلات الحج على ازدهار العلوم الإسلامية في مدن دولتَي مالي وسنغاي؛ مثل: تمبكتو وجنى؛ حيث انعكست الآية، وأصبحت هذه المدن مركزاً لجذب طلاب المشرق، وعلمائهم، ممّا كان له الأثر في تعميق تبادل العلوم الإسلامية والحضارية. ومن الأمثلة الواضحة هنا، نجد رحلة الحج لملك مالي "منسى موسى"، التي ساهمت كثيراً في تطور الإسلام في مالي، فقد حرص– في أثناء رحلته– على شراء كُتُب إسلامية كثيرة خاصة في الفقه المالكي. وترتبط رحلة حجه– أيضاً– بإنشاء أول المساجد الجامعة الكبيرة في تمبكتو، وحول هذا الجامع، تكوّنت النواة الأولى للعلماء والمفكرين المسلمين

---

٤٤ – الأبيض: أنيس، رحلة الحج من الأندلس، كما وصفها ابن جبير، ص٤٣، دار ابن رشد، بيروت/ ٢٠١٥.

[45] – جوزيف: جون، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ص ١١٤، ترجمة: مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة / ١٩٨٤.

[٤٦] – قاسم: د. قاسم عبده، مسلمو غرب إفريقيا على طريق الحج عبر مصر في زمن السيادة الإسلامية، ص ٦٦، مرجع سابق.

في تلك البلاد، وحوله وحول ما تلاه من جوامع، أُقيمت عشرات المدارس الإسلامية التي ضمت آلاف من طلاب العلم الوافدين من أنحاء غرب إفريقيا[٤٧].

أثر رحلة الحج في اندماج إفريقيا الغربية بالعالم الإسلامي:

في كل عام، وبإصرار، كانت تخرج من غرب القارة قوافل الحجّاج، الذين حرصوا على أداء هذه الفريضة، رغم ما كانوا يتكبّدونه من مشاقّ؛ حيث يلتقون في الطريق، وفي الموسم إخوانهم المسلمين، على اختلاف بلدانهم، فيشعر الإفريقي بانتمائه إلى عالم إسلامي واسع، وبأخوّته لمسلمي ذلك العالم، فتزول الحواجز العِرْقية، والقبلية، واللغوية، والاجتماعية، ويصبح الجميع شعباً مسلماً واحداً، يقرؤون كتاباً واحداً، ويتجهون إلى قِبْلَة واحدة. كما كان عدد منهم يعودون مُلمّين باللغة العربية، فيقومون بإنشاء المدارس لتعليمها، ولتحفيظ القرآن الكريم، ونشر عقائد الإسلام الصحيحة[٤٨].

عندما كان سكان إفريقيا الغربية يقومون بالرحلة نحو بلاد الإسلام، تدفعهم فريضة الحج التي يتماشى معها طَلَبُ العلم والتفقُّه، كانوا يحرصون على ارتياد حلقات العلم، في المساجد، والمدارس، والزوايا المنتشرة على طول الطريق، وحتّى الحجاز. والتي كانت تسبّب– أحياناً– مرافقة العلماء لركب الحجيج إلى إفريقيا الغربية. فكان لرحلة الحج دور مهم في اندماج إفريقيا الغربية روحاً وفكراً وحضارة بالعالم الإسلامي، "وبخاصة أن بعض ملوك مالي وسنغي زاروا مصر، واطّلعوا على حضارتها، وهم في طريقهم إلى الحجاز لأداء مناسك الحج"[٤٩]. ذلك كله يجعلنا نُقدّر دور قوافل الحجيج بتوحيد المفاهيم الدينية بين المسلمين، وخاصة البعيدين عن قلب العالم الإسلامي.

أثر حجّاج إفريقيا الغربية في طريق الحج:

ولم يحدث في التاريخ البشري أن ترك مهاجرون ومرتحلون من منطقة إلى منطقة أثراً، يبقى مثل الذي تركه حجّاج غرب إفريقيا على المناطق التي عبروها؛ حيث لم يقتصر الأثر على نقل العادات والتقاليد وأنماط الثقافة، أو اللغة التي تنساب معهم على طول الطريق، إنما امتد الأثر للاختلاط البشري؛ حيث كان كثير من الأفارقة الغربيين، يستقرون في مناطق الطريق المختلفة، إذا انقطعت بهم السُّبُل، أو طاب لهم العيش، وفي بعض الأحيان، كانوا يستدعون أهلهم للّحاق بهم.

المؤثرات الحضارية لطريق الحج في إفريقيا الغربية:

ممّا يؤكده الرواة عن رحلة حج الملك منسى موسى هو تأثر البلاط الملكي لمالي بالمراسيم والنُّظُم التي كان يُعمَل بها في بلاط سلاطين المماليك في مصر. كما أن موسى اصطحب معه – في طريق عودته – المهندسين والمعماريين، الذين ساعدوا على إقامة نهضة حضارية ومعمارية في غرب إفريقيا، ومن

---

[٤٧] – ميغا: هارون المهدي، التاريخ الإسلامي في غرب إفريقيا، ص١١١، مجلة قراءات إفريقية، المنتدى الإسلامي، فبراير/ ٢٠١٦.

[٤٨] – عبد الحليم: د. رجب محمد،، ص ٨/ ٧٩، مرجع سابق.

[٤٩] – الشمراني: د. أمل بنت صالح، رحلات الحج وآثارها على بلاد السودان الغربي في عصر دولتي مالي وسنغاي (٦٣٣– ٩٩٩هـ/ ١٢٣٥– ١٥٩٨م) ص/ ٨٢، مرجع سابق.

هؤلاء "الساحلي"[٥٠]، الذي أدخل إلى مملكة مالي وإفريقيا الغربية، أساليب البناء الأندلسي في تشييد المساجد والقصور، ممّا جعل هذا الطراز هو الغالب في تلك البلاد[٥١]. وقام الساحلي بتصميم جامع تمبكتو الكبير، والإشراف على بنائه؛ ليكون النواة الأولى لعدة صروح في مالي، وقد تحول المسجد مع الزمن إلى مركز للعلوم الشرعية والدنيوية، وما تزال آثار هذه العمائر من مساجد وقصور موجودة حتّى الآن[٥٢].

أما السلطان أسكيا محمد سلطان سنغاي؛ فقد تأثر بما رآه في مصر من نُظُم الحكم والإدارة، واتصل بعدد من علماء مصر، منهم الإمام السيوطي. ولما عاد إلى سنغاي، طبّق الكثير من النُّظُم التي تعرّف إليها بمصر، وأحاط نفسه بالعلماء والفقهاء، وأَولى جامعة تمبكتو عناية خاصة.

وهكذا يتبيّن لنا أن رحلات الحج كان لها آثار ملموسة على الحياة الدينية، والسياسية، والحضارية، في بلاد إفريقيا الغربية. ولذلك شهدت تمبكتو أزهى أيامها بعد رحلة حج أسكيا محمد، ومن ثم؛ في عهد خلفائه، فقد تضاعفت مساحة البنيان فيها، واعتنى الملوك ببناء المنازل الجيدة، مقتبسين تخطيط الدار الإسلامية. وأعادوا إعمار المدارس، حتّى تسابق العلماء من مدن المغرب ومصر للتدريس فيها. وقد بلغ الأمر ببعض الكتّاب المعاصرين أن يقولوا: إن رحلة حج أسيكا محمد ما كانت إلا رحلة استطلاعية، الغرض منها: "اكتساب خبرات بالاطّلاع على أحوال ممالك الشرق، وطرق تسييرها"[٥٣]، مع أن بعضهم وَهَم باعتقاده بأن الهدف الحقيقي لحج الملك أسكيا محمد كان سياسياً، يتمثل في الحصول على لقب خليفة على إفريقيا الغربية، من الخليفة العباسي[٥٤].

دور رحلة الحج بالتعريف بإفريقيا الغربية:

ربما كان من أهم نتائج رحلة حج مانسا موسى التاريخية على تاريخ إفريقيا الغربية، أنها فتحت الآفاق أمام مملكة مالي، وجعلتها محط أنظار، ليس المسلمين – فقط – بل والأوروبيين. فلهذه الرحلة يعود الفضل في التعريف بمكانة إفريقيا الغربية، وتسليط الأنظار على ما وراء الشمال الإفريقي[٥٥]؛ حيث إن

---

[٥٠] – الساحلي: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، الملقب "طويجن"، أديب ومهندس معماري أسباني الأصل، خرج من مدينة غرناطة في أوائل القرن ٨هـ/ ١٤م لتأدية فريضة الحج المكرّمة، فالتقى في مكة سلطان مالي منسى موسى سنة ٧٢٤هـ ١٣٢٤م، فدعاه السلطان لمرافقته، وبقي في مالي إلى وفاته في مدينة تمبكتو سنة ٧٤٧هـ ١٣٤٦م (المقري: أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ١٩٤/٢، المكتبة الثقافية، بيروت/ ١٩٨٧).

[٥١] – الشنقيطي الجكني: محمد الأمين، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ص ٢٥٥، دار الشروق، جدة/ ١٩٨٣.

[٥٢] – ابن محمد: عبد الله، رحلة مانسا موسى، ص ١٦٣، المجلة العربية، الرياض، العدد/ ٤٧٢، جمادى الأولى ١٤٣٧هـ.

[٥٣] – زبادية: د. عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، ص ٣٦، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر/ بدون.

[٥٤] – التازي: د. عبد الهادي، العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية: المغرب في خدمة التقارب الإفريقي العربي، ص ٦٦، تونس/ ١٩٨٥. وهذا وَهْم، فالخليفة العباسي كان في أحسن الحالات يمنح لقب سلطان، أما لقب خليفة؛ فهو ما يميّزه وحده، وقد توترت العلاقات بين بغداد والدول التي قامت في المغرب العربي، من الموحّدين وحتّى الفاطميين، لاتخاذ ملوكها لقب: "أمير المؤمنين".

[٥٥] – ابن محمد: عبد الله، رحلة مانسا موسى، ص ١٦٥، مرجع سابق.

مرور موكب السلطان موسى على ساحل البحر المتوسط، أعطى الفرصة لتجّار أوروبا، الذين كانوا يرتادون شمال إفريقيا، ومدنها الساحلية، لمشاهدة الأبّهة التي سافر بها هذا الملك للحج، فوصلت شهرة مالي، وأخبار موكب حج ملكها إلى أوربا كلها، ممّا هيأ الحوافز التي أدت إلى زيادة الرغبة، في التعرّف على قلب إفريقيا، وربما كان ذلك تمهيداً لحركة الكشوف الجغرافية والاستعمار الأوربي في القارة الإفريقية[٥٦].

دور رحلة الحج بانتشار اللغة العربية:

ساعدت رحلة الحج على ترسيخ اللغة العربية في إفريقيا الغربية، فلكونها الوعاء الثقافي للإسلام، كان اهتمام الأفارقة كبيراً بتعلّمها كجزء من التديّن، وكانت الفرصة سانحة لذلك خلال رحلة الحج، بواسطة المرافقين من شمال إفريقيا، والاحتكاك بالناس، بسبب البيع، وتأمين الحاجات، وكذلك النقاش مع سكان بلدان الطريق، ذلك كله كان يرسّخ اللغة العربية، وبالتالي يرسّخ الإسلام، ويساعد على التفقّه فيه[٥٧]؛ ممّا أدّى لنشوء العديد من المراكز الثقافية الإسلامية المشهورة،التي تعتمد اللغة العربية، في أهم المدن؛ مثل: تمبكتو، وجنى، وسكتو، وكانم. وغدت اللغة العربية واسعة الانتشار، في غرب إفريقيا، واستُخدمت لغة اتصال مشتركة بين العديد من القبائل الإفريقية التي لكل منها لغتها الخاصة، وتُعدّ– الآن– اللغة العربية الدَّارجة هي لغة التخاطب الأساسية هناك[٥٨].

دوافع مسلمي غرب إفريقيا للقيام برحلة الحج:

إذا مَنعت المشقّة، وبُعد الشقّة من السفر برحلة الحج، فالدافع الديني يُهوّن المصاعب، ويُقرّب المسافات، وكذلك التشوّق إلى أرض الحجاز؛ حيث بزغ الدين الإسلامي، وحيث المدينتين المقدستين: مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهما مهوى أفئدة المسلمين، ومكان استكمال أركان الدين، بأداء مناسك الحج. ومن ناحية أخرى، كان الشرق العربي الإسلامي في تلك الفترة مركز الثقل في العالم المسلم، ومستودع ميراث الحضارة العربية الإسلامية، ومجدها، ومحطّ أنظار المسلمين جميعاً. ولم يكن شوق السفر إلى الشرق العربي– وبلاد الحجاز خاصة– قاصراً على الحكام في إفريقيا الغربية، وإنما امتد إلى رعاياهم الذين تكبّدوا تكاليف الرحلة، ومشاقّها، وخاطروا بعبور صحاري منعدمة الأمن، من أجل أن تُتوَّج حياتهم بهذا الحدث العظيم. ومثلما يفعل مسلمون كثر، كان بعض مسلمي غرب إفريقيا، يفضّلون قضاء ما بقي لهم من العمر في رحاب المدينتين المقدستين: زوّاراً، وحجّاجاً، ومجاورين، ودارسين، أو مُدرِّسين[٥٩].

وكان المسلمون الجدد في إفريقيا الغربية، يرون ارتفاع المكانة الاجتماعية لإخوانهم وأقربائهم، الذين تيسّر لهم أداء فريضة الحج، فيُقدمون على الرحلة مندفعين لتحدي مشاقّها. ومع أن الجزء الأساسي من رحلة الحج كان كله وجدانيات دينية، وتفقُّه بالشرع، لكنْ؛ أحياناً، كان أداء فريضة الحج يرتبط– لدى

---

[٥٦] – الشكري: أحمد، الإسلام والمجتمع السوداني – إمبراطورية مالي، ص ٣٢، المجمع الثقافي، أبو ظبي/ ١٩٩٩.

[٥٧] – باه: عمر محمد، الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص ٢١٠، مؤسسة الرسالة، بيروت/ ١٩٩٣ .

[٥٨] – الشنقيطي الجكني: محمد الأمين، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ص ٢٥٤، مرجع سابق.

[٥٩] – قاسم: د. قاسم عبده، مسلمو غرب إفريقيا، ص ٨٧، مرجع سابق.

البعض- بمهام علمية أخرى، مثل: لقاء كبار المحدثين أو الفقهاء وسماع مروياتهم عن أشياخهم، والأخذ عنهم والسعي لنيل إجازاتهم، وإلا فالحصول على عدد من مؤلفاتهم[٦٠]. إن لقب "الحاج" يُعدّ من أشهر الألقاب الدينية في العالم الإسلامي، نظراً لما تحمله رحلة الحج من مخزون إيماني ومعنوي في وجدان المسلمين، ولكن هذا اللقب في مناطق غرب إفريقيا، كان له وقع أكبر من التقديس والاحترام، لما يعانيه الحاج من الخطر والمشقة، ولما حاز عليه من البركة والعلوم الشرعية، وغالباً ما كان يتولى الحاج- بعد عودته- الإمامة في مسجد قريته، أو حيه، وقد يُولّى القضاء.

إضافة لذلك كله، تأتي فوائد التبادل التجاري والمعرفي، وتحصيل العلم، في حواضر مدينية، ليس لها مثيل في غرب إفريقيا. ولهذا تعددت قوافل الحج التي كانت تخرج من إفريقيا الغربية، والتي كان على رأسها الملوك، أو الحكام، في بعض الأحيان[٦١].

منافع أخرى لرحلة حجيج إفريقيا الغربية:

كان النشاط التجاري المرافق لرحلة جميع قوافل الحج الإسلامية أمراً معهوداً[٦٢]، والتجارة من الجوانب التي تركت فيها رحلة حج منسى موسى أثراً واضحاً، فقد أثارت اهتمام التجّار على طول خط رحلته، وأغرتهم بالتجارة مع غرب إفريقيا، وخصوصاً التجّار المصريين الذين صدّقوا ما انتشر من خرافات عن الأشجار، التي تُثمر ذهباً في تلك البلاد البعيدة. فنشطت التجارة عبر قوافل الحج حتّى مارسها الحجّاج على طول طريقهم إلى الأراضي المقدسة، وقام التجّار بتوسيع أعمالهم ونشاطاتهم في مالي حتّى أصبحت تمبكتو المركز التجاري الرئيس في إفريقيا الغربية، ومركز تجارة الذهب في عموم القارة. وممّا ساعد على ذلك انتقال تجّار مدينة "جنى" المشهورة بتجارة تبر الذهب للإقامة بتمبكتو، ثم تبعهم تجّار مدينة "ولاتة"، أو غانا، كما كان يسمّيها العرب، فتحولت تمبكتو إلى مدينة عامرة بالتجارة والتجّار، ومنارة للحضارة والثقافة[٦٣]. وهذا يدل على ما كان لقوافل الحجيج من مساهمة فعالة، في نمو اقتصاد إفريقيا الغربية.

كان الحجّاج الميسورون، وكذلك التجّار المرافقون للركب، يشترون من السلع، ما خف وزنه، وغلا سعره، بدل حمل النقود معهم. ومن أبرز السلع التي كانوا يُقبلون على أخذها معهم، نذكر: تبر الذهب، والمصنوعات الجلدية، وفي أثناء الطريق، كانت تُقام لقافلة الحجّاج أسواق خاصة، يتزوّدون فيها، بما يحتاجون إليه من مؤونة، وبضائع محلية، عن طريق مقايضتها ببعض ما يحملونه معهم من سلع. وكانت بضائع إفريقيا الغربية مطلوبة في شمال إفريقيا. حتّى إنهم أقاموا في مصر سوقاً خاصاً سُمّي "سوق المغاربة". تُباع السلع المجلوبة فيه، ويتزوّد التجّار والحجّاج

---

[٦٠] - ولد السالم: مرجع سابق ص ٣٠،.

[٦١] - عبد الحليم: د. رجب محمد، المسلمون في إفريقيا جنوبي الصحراء، ص ٨/ ٧٥، مرجع سابق.

[٦٢] - ذكر القرآن الكريم أن للناس منافع في الحج: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ.. - الحج/ ٢٧- ٢٨}، والمنافع- كما ورد في التفاسير- دينية ودنيوية، والدنيوية أهمها التجارة.

[٦٣] - ابن محمد: عبد الله، رحلة مانسا موسى، ص ١٦٧، مرجع سابق.

منه، بالسلع المحلية، أو المجلوبة من مناطق أخرى. أما في الحجاز؛ فكان التجّار والحجّاج المغاربة يرغبون بسلع الشرق القادمة من الهند والشام، خصوصاً الحرير، والتوابل، والعطور، والبخور، والسجاد[٦٤].

وفي أعقاب الانتهاء من الحج، كانت قافلة الحجّاج العائدة تصل إلى فاس، في حدود أواسط شهر ذي القعدة، بعد أن تكون قد استغرقت- ذهاباً وإياباً إلى الحجاز- عاماً ونصف[٦٥]. ثم يتابع- بعدها- حجّاج غرب إفريقيا رحلتهم؛ حيث تتفاوت مُدَد وصولهم، بحسب مواقع بلدانهم.

---

[٦٤] - أحمد: د. مهدي رزق الله، حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، ص ١٤٩، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض/ ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

[٦٥] - واعراب: مصطفى، الحج قديماً، ص ١٥٢، مرجع سابق.

المصادر والمراجع:

١. بناني عثمان، السودان الغربي عند ابن بطوطة، وابن خلدون، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف، المملكة المغربية، العدد ٢٦٩ أبريل ١٩٨٨.

٢. عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون: المقدمة، ٩٧، دار الكتب العلمية، بيروت/ ١٩٩٢.

٣. عباس محمد جلال، المد الإسلامي في إفريقيا، المختار الإسلامي، القاهرة/ ١٩٧٨.

٤. رجب محمد، المسلمون في إفريقيا جنوبي الصحراء، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، دار الرسالة/ بيروت ٢٠٠٤.

٥. زيربو: ج. ك، تاريخ إفريقيا السوداء من أمس إلى غد، ترجمة: يوسف شلب الشام، وزارة الثقافة، دمشق/ ١٩٩٤.

٦. **قاسم عبده، مسلمو غرب إفريقيا، دار عين للدراسات، القاهرة / ٢٠١٥.**

٧. اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت/ ١٩٩١.

٨. إبراهيم محمد أحمد، الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، دراسات دعوية، العدد ٩، فبراير/ ٢٠٠٥ – جامعة إفريقيا العالمية.

٩. أحمد محمد عبد القادر، المسلمون في غينيا، دار الفكر العربي، القاهرة/ ١٩٩٦.

١٠. أمل بنت صالح الشمراني، رحلات الحج وآثارها على بلاد السودان الغربي في عصر دولتي مالي وسنغاي (٦٣٣- ٩٩٩هـ/ ١٢٣٥- ١٥٩٨م) رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض/ ١٤٣٢هـ.

١١. نعيم قداح، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، ص ٨٥، الشركة الوطنية، الجزائر/ بلا.

١٢. أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب – وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، ٨٧، دار صادر، بيروت/ ١٩٨٧.

١٣. تقي الدين أحمد بن علي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة/ ٢٠٠٠.

١٤. محمود حسن أحمد، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، دار الفكر العربي، القاهرة/ ٢٠٠٦م.

١٥. عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار إحياء التراث العربي، بيروت/ بلا.

١٦. حماه الله ولد السالم، رحلات الحج من موريتانيا "بلاد شنقيط"، المؤتمر الدولي الأول: "الرحّالة العرب والمسلمين"، الدوحة/ ٢٠١٠.

١٧. أنيس الأبيض، رحلة الحج من الأندلس، كما وصفها ابن جبير، دار ابن رشد، بيروت/ ٢٠١٥.

١٨. جون جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة: مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة / ١٩٨٤.

١٩. هارون المهدي، التاريخ الإسلامي في غرب إفريقيا، مجلة قراءات إفريقية، المنتدى الإسلامي، فبراير/ ٢٠١٦.

٢٠. عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر/ بدون.

٢١. أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني – إمبراطورية مالي، المجمع الثقافي، أبو ظبي/ ١٩٩٩.

٢٢. عمر محمد، الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، مؤسسة الرسالة، بيروت/ ١٩٩٣ .

٢٣. مهدي رزق الله أحمد، حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض/ ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.